أدب الـمِحَن

أو: الأوبـاء والأدواء في آثار الشعراء والأدباء

أ.د. عبد الكريم الرحيـوي(*)

الملخَّص:

الأوبئة والأمراض من المحن التي لحقت الإنسانية على توالي الدهور والعصور، فأحدثتْ فيها من الهلاك ما تشهد عليه آثار السلف من الكُتب والأسفار، والأخبار والأشعار.

ونحن في هذا البحث نتتبّعنا مُنجزَ الشـعراء والأدباء نتحسـس مواطن أوجاعهم مما حلّ بهم مـن الأوبئة والأدواء، ونتقفى في إبداعاتهم مواضـعَ الأسى الذي حاق بهم، وهُمْ يرزحون تحتَ ويـلاتِ الكوارث والمحن، وشـدائد الجوائح والرزايا؛ جَمَّعْناها جمعًـا، ونظرنا فيها بعين النقد الوصفي التحليلي، في مسـعىً لبناء مُدخلاتِ التَّوقِّـي ومقدِّمات التَّحرُّز، مسـتلهمين منها ما يفيد من العِبَـر والمواعظ، وما يُغْني من الدروس والفوائد .

الكلماتُ المفتاحيةُ: المحن، الأوبـاء، الأدواء، الوقاية، العلاج.

(*)عضو اتحاد كتاب المغرب أستاذ باحث بالأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين بجهة فاس/مكناس المملكة المغربيـة .

تقديم:

خلـق اللهُ الإنسـانَ واسـتخلفَهُ الأرضَ يسـيح فيها كيف يشـاء [﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (التوبة: ٢)]، وابتلاه بالخيـر والشر منحةً ومحنةً ليمتحن شُـكره وكُفره [﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْـرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥)]؛ ثم كانت المحنُ والابتلاءاتُ نصيبًا بقدرٍ معلوم ينـزله الله على مَن يشـاء، منذ الأزل وإلى قيام الساعة.

لقـد تعاقبت على البَشَريّة منذ الأزل أنواعٌ كثيرة من الأمـراض والأوبئة، والمحن والكـوارث البيئية والطبيعيـة والبَشَريّـة، مـن طواعـين ومجاعات، وحـروبٍ وفتنٍ وإبادات، وزلازل وبراكينَ وجفافٍ وفيضانات، وصواعقَ وثلوجٍ وبَرَدٍ ورياحٍ عاتيات، وزحفـت عليهـم -أحيانـا- أسرابٌ مـن حشراتٍ وحيوانـات، مثـل الفـئران والجـراد والبَعـوض والقُمَّـل... درجَـةَ أن أرَّخُوا للأعوام والسـنين بما وقـع فيها من هذه المحـن والجائحات، والكوارث والشـدائد الماحقـات[1]. فصرنا نسـمع مثلًا: عام الجـوع، وعـام الطاعـون، وعـام الجـراد، وعام الكوليرا... وآخـرُ هذه الكوارث- ونرجو أن يكون آخرَها- عام كورونا.

ولـم يكن الأدبُ والأدباءُ، والشـعرُ والشـعراء، والعلـم والعلمـاءُ، وغيرهـم مـن ذوي الصناعات والطُّبـوع، بمعـزلٍ عـن هـذه الأحـداث الأليمة، والملمّات الجسـيمة؛ إذ منهم من عايشها واكتوى بلهيبَهـا، ومنهـم مـن تناهـى إليه خبرُهـا فوثَّق مُجرياتِها شعرًا أو نثرًا أو رسمًا أو نحتًا أو نحوها من الفنون.

وإن هـذا البحـث سـيـرفُدُ مادَّتَـه مما وصلنا من هؤلاء الشـعراء والأدباء والعلمـاء، ومما بلغنا مـن إبداعهـم وتوثيقهـم وأقوالهـم وصنيعهم في دوّامـة المَواجع والفَواجع، وداخل شرنقة الكوارث والمهالك؛ ما دمنا نُسَلِّمُ أن جمالية الإبداع قد تنبثق مـن كلوم الذات أحيانا، وتتخلَّـق في رحم الاقتراح والاجتراح.

ولإدراك بُغيتنـا من هذا البحث وبلوغِ مرامنا منه؛ بنيناه على خمسة محاور، وهي تِباعا:

الأول: في الأدب والـمِحـن ومـا عرض في ذلك من

(١) يعدد الباحث الدكتور عبد العزيز فعراس في كتابه: (المعجم الحساني) أعوامًا تؤرّخ بها القبائل الصحراوية الحسانية في الأقاليم الجنوبية للمغرب، مع امتدادها إلى عمق صحراء مالي وتمبوكتو ونهر السينغال، ومنها أعوام اكتسبت تسميتَها من الأوبئة والكوارث، من قبيل: عام الفأر (تكاثرت فيه الفئران)، وعام«اجْرَبْ لَغْنَمْ»(تعرضت فيه قطعان الغنم لداء الجرب)، وعام «أرْكَـادْ»(موت المواشي والإبل بشكل يوحي أنها نائمة، وشاع فيه القحط والجفاف)، وعام «اشْدِيدَة»(تصغير: الشدة. وهي جفاف محا المراعي وأودى بالقطعان)، وعام «اجراد» و«العام لَحْمَرْ» (نسبة للون الجراد، وهو الأحمر)، وعام الجذري (أصاب الناس والمواشي)، وعام الجَّاوْشْ (نوع من الطيور هجم على المحاصيل فلم يترك شيئا وخلّف مجاعة)، وغيرها من الأعوام التي توحي في الذاكرة الجماعية لتلك القبائل بتواريخ محدّدة. يُنظر: المعجم الحساني. ص: ٤٠١ وما بعدها.

وذكر ابنُ الجوزيِّ أنه في سنة ثماني عشرة للهجرة أجدبت الأرض، وكانت الريح تسفي ترابا كالرماد، فسُمّي ذلك العامُ عامَ الرّمادة. يُنظر: المدهش ص:٦٤.

الأحوال والأهوال؛

الثاني: في أسـباب العلـل والأدواء ومـا يُتَحَصَّل معهما من الهلاك والمضارّ؛

الثالـث: في الوقاية والاحتراس واسـتباق الأخطار بدفعها قبل حدوثها؛

الرابــع: في العـــلاج والاستشـفاء وما ينشـأ عن ذلك من آثار؛

الخامـس: في وبـاء كورونا ومتحوّراته (إشـارة موجزة).

وإن غايتنـا الإبانةُ عن توالي الشـدائد والكوارث والأمـراض عبر العصور والدّهـور، وتعاقبها على الأمم والحضـارات والدول. ثـم التوعيةُ بمخاطر الأمراض والأوباء وما تسـاوق معهـا من الخوف والجـوع والأوجـاع والهـلاك، بجعـل الوقايـةِ رأسَ العـلاج وذروةَ سـنامه، والحيطـةِ أسـاسَ الاحتراس وأُسَّـه وأساسَه، عبر حفظ النفس والجسد مـن الأضرار ومسـبباتها، وتقويتهمـا بالطاعـات والرياضـات، وبصَوْنِ الوسـط الـذي تعيش فيه والبيئـة التـي تحيـى داخلَهـا؛ متمثِّلـةً منطوق المثل السـائر: «العقل السـليم في الجسم السليم».

المحور الأول/ في الأدب والـمِحـن

مـن رحم المعاناة ورماد الاحتراق والألم تتخلّق بذرة الإبـداع وتنبعث شرارته؛ فتنـبري القصيدة الشِـعريّة أو الخطـاب النثري لكشـف ما يخالج النفس من نزعات، وما يعتمل في دواخلها من رؤى. فمعلـوم أن الكارثـة حين تحلّ «تسـتدعي صورَ الهلع الفـردي والجماعي، والتدابـير والإجراءات العمليـة لتطفيـف نتائـج الفاجعـة وتفاعلاتها. وفي الحديـث عن الكارثة ترتحـل الذاكرة القريبة والبعيـدة إلى وقائـع تاريخيّـة وظاهـرات أليمة عاشها الإنسان وخبرها، ومازالت ماثلة بأشباحها وأطيافها في الذاكرة الجمعية، وفاعلة في الوجدان، على شـاكلة الحضور الأكثر فاعليـة في غيابه»[٢]. ثم سَرعان من تتفاعل تلك الأطياف في مكاشـفات الذات المبدعة، فتترجمها إلى إبداع يوثّقها ويحفُّها بأسرار الجمال الفني.

فإذا ما احتكمنا إلى أبي الحسن علي بن عبد الغني الحُـصَريّ القيرواني الضَّرير (تـوفي بطنجة عام: ٤٨٨هـ)؛ نجده ينقل إلينـا بالحسرات والزّفرات مرض صغيره المحبوب عبد الغني بمرض تسـبَّبَ في نزيـفٍ دمـويّ لا يـبرحُ أنفه، فـأودى إثر ذلك وعمره لمّا يبلغ العشْر سـنوات. «وقد طال المرض بالطفل، واستمرّ النزيف، حتى عَجَزَ أطبّاءُ الْمِرْيَةَ وقرطبـة عن مداواتـه(...) وانتفـخ وجهه وأنفه، وتقلَّصَـتْ شَـفَتاه، وجحظتْ عيناه، واسـتحالت دماء الرّعاف إلى قيحٍ تسيل معه نفسه(...) وكان الطفل يعاني كربا شـديدا من هذا المرض، فيتألّمُ ويصرخ ويتقلّب وتتشـنّج أعضاؤه. وحين لا يجد مَفَـرًّا من آلامـه، يسـتنجد بأبيه الوالهِ المسـكين، ويعتنقه، ويشـكو له ما يعانيه من شِـدَّةِ الكرب، فـلا يجد الأب إلَّا دموعه يسـفحها صامتًا صابرًا، داعيًا اللهَ أن يُريحَ ولده مما يعانيه (...) وتستمرّ آلام الطفل على هذا النَّسَـقِ فيسهر الليالي صارخا متألما، حتى يضوى جسـمه، وتضعـف أعصابه، ويدفعه النَّصب إلى النوم فينام، وينام طويلا، وقد

---

(٢) الذاكرة وتجربة الألم في خطاب الفاجعة التخييلي (قراءة وصفية فينومينولوجية مقارنة)، مجلة عالم الفكر، ع ١٨٧، ٢٠٢٢م. ص: ٣٤.

يســتمر نومه ثلاثَ ليالٍ متواليات، فيستريح الأب إلى ذلك، ويرى أن هذا النومَ رحمةٌ من الله، ورأفةٌ منه بطفله المسكين»[٣].

وقد رثى الحصري ابنه هذا بديوان كامل أسماه: «اقتراح القريح واجــتراح الجريح»، رتّب قصائده عــلى حروف المعجم، وصاغ حروفها ومعانيها من دم ودمع وأرق وسهاد.

يقــول الحصريّ في إحدى قصائــده مصوّرًا بؤس الحال هذا ومرارة الفقد [٤]:

قَطَّعَ الضُّرّ أَمامي كَبِدي
وَأَراني قَمَري كَيفَ امَّحَقْ
أَطفَأَ السقمُ بِرُغمــي نورهُ
وَرُعافٌ كُلَّمــا كَــفَّ دَفَقْ
فَكِلانا في دَمٍ، مُشتَجِــطٌ
فَإِذا يرعَفُ أَبكي بِالحُرَقْ
أَذبيحٌ أَم جَريحٌ وَجهـهُ
فَأَديمُ الحُسنِ مِنهُ مُختـرَقْ
أَم سَقيمٌ عَبَثَ السقم بِهِ
وَتَلاشــى لَحمهُ وَالجلدُ رَقْ
كربهُ مِن كُرَبٍ كانَت بِهِ
تَترُكُ الأَجفانَ قَرحى بِالأَرَقْ
وَلَقَد كانَ عَلى أَوصــابِهِ
رُبَّمــا نــامَ ثَلاثًا فــي نَسَــقْ
وَإِذا استَيقَظَ مِن نَومَتِهِ
زادَتِ الأَوصابُ وَاشتَدَّ القَلَقْ
وإِذا ما أَعجِبوا مِن نَومِهِ
قُلتُ لا غَــروَ بِهِ اللَهُ رَفَــقْ
قَتَلَ اللَهُ وَلَو شاءَ شَفى
فَتَقَ اللَه وَلَــو شــاءَ رَتَــقْ

فالشــاعر محترقٌ فــؤاده، مفجوعٌ قلبــه، مكتوٍ كبــده، حتــى أنَّه بات يتوسّــل اللحــاق بابنه على عجل:

عَبْدَ الغنــيِّ ابنــيَ المفدَّى
بالنفْسِ لو كنتُ مستطيعا
علّمتَنــي اليومَ كيف أبكي
وكـنـتُ لا أَبذُلُ الدموعـــا
عُدْ واسألِ اللهَ قبضَ روحــي
ليجعَلَ الملتقــى سَــريعا[٥]

وهــذا ابن الــوردي (ت ٧٤٩هـ)[٦] يضعنا في صلب معاناة الناس في عـصره مع وباء الطاعون الفتّــاكِ، ويقرّبنا من أحوالِهــم الصحيةِ المتدهورة وهم يئنـون تحت وطأة هذا القاتل الأســود الذي لا يرحم صغــيرًا ولا كبيرًا، ففي رســالته «النّبَــا عن الوَبَـــا» يقول: «طاعونٌ رَوَّعَ وَأَمَات، وابتدأ خـبرهُ مــن الظُّلُمات، يا لــه من زائر! مِــنْ خَمْسَ عَشْرَةَ ســنةً دائــر، ما صينَ عنه الصــين، ولا مَنَعَ منه حِصْنٌ حصــين (...) وجَرَّ الجرائر إلى قبرصَ والجزائــر، ثم قَهَرَ خَلْقًا بالقاهــرة، وتنبَّهَتْ عينُهُ لمــصرَ فقال عــز وجل:﴿فإذا هم بالســاهرة﴾[٧]، وسكّنَ حركة الإسكندرية [وأنشد]:

إســـكندريةُ ذا الوبـــا
ســـبُعٌ يَمُـدُّ إلــيكِ ضَبْعَهْ

(٣) علي الحصري القيرواني، ديوانه: ٢٨٥ وما بعدها.

(٤) السابق، تنظر القصيدة، وتعداد أبياتها مئة بيت إلَّا اثنين في الصفحة: ٤٢٣ وما بعدها.

(٥) المصدر نفسه: ٤٧٣.

(٦) زين الدين أبو حفص عمر بن مظفّر بن عمر ابن الوردي الشافعي. من كبار أدباء العصر المملوكي الأول. نبغ في الشعر والترسّل وسائر فنون الأدب في زمانه، من مقامة، وخطابة، ورسائل. وتعدّ «رسالة النبا عن الوبا» من أهم رسائله الأدبية، كتبها زمنَ انتشار وباء الطاعون في كثير من بقاع العالم، فوصل إلى مدينته حلب سنة (٧٤٩هـ). وهو المرض الذي هلك به، ويقال بعد يومين بعد كتابة هذه الرسالة.

(٧) فيه تضمين للآية ١٤ من سورة النازعات: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾. والساهرة: الأرض. والمعنى في البيت: فإذا هم على الأرض صرعى.

صَــبْرًا لِقِسْمَتِهِ التــي

تَرَكَتْ مِنَ السَّبْعِينَ سَبْعَهْ»[٨].

ثم يتحدث ابن الوردي عن شدة عدوى الوباء[٩]، وشــدة فتكــه بالناس، وأنــه يُســكن المصابين به الأجــداث [القبور]، بعد ليلتين أو ثلاث! إلى أن بلغ حاضرة حلب بلدة الأديب ابن الوردي فعاث فيها موتــا وهلاكا، ودفــع أعيانها إلى الاجتهــاد في درءِ ما هــو بهم حاصــل ، ودفع ما لا شــك هو نازل. فيقــول ابن الــوردي في ذلك: «فلو رأيــت الأعيانَ بحلــب وهم يطالعون من كتــب الطبّ الغوامض، ويكثرون في علاجه من أكل النواشف والحوامض، قد تنغَّصَ عيشُــهم الهَنيّ، بملاطخة مُسلم الطينةِ الطــينَ الأرمنِــيّ، وقــد لاطــف كل منهــم مزاجه وعدل، وبخّروا بيوتهم بالعنبر والكافور والســعد والصنــدل، وتختّمــوا بالياقوت، وجعلــوا البصل والخــل والصّحنا من جملــة الأُدُمِ والقوت، وأقلّوا من الأمــراق والفاكهة، وقرّبوا إليهم الأُتْرُجَّ[١٠] وما شابهه، ولو شاهدتَ كثرة النعوش وحملة الموتى، وسمعت بكل قطر من حلب نحيبا وصوتا، لولّيت منهم فرارا، ولأبيتَ فيهم قرارا»[١١].

ثم إنه حينما يرى المرء نفســه أمام سهم المنية ولات حين مفرّ، وعينيه نُصْــبَ التهلكة ولا منجاةَ بفــرٍّ أو كــرّ؛ فإنه موكــولٌ آنذاك إلى أحــد أمرين لا ثالــث لهمــا: أوّلِهمــا: الضَّراعة والتبتّــل؛ إذ قد يتحصّل له في التوسّــلِ والرجاءِ الخلاصُ والنَّجاء. وفي هــذا يقول ابن الوردي: «وما منعنا الفرارَ منهُ إلا التمسّكُ بالحديث، فهَلُــمَّ بنا نستغيث إلى الله تعــالى في رفعه فهو خير مغيــث، اللهم إنا ندعوك بأفضل ما دعاك به الداعــون، أن ترفع عنا الوباء والطاعون»[١٢]. وثانيهما: التهيُّؤُ للرحيل والتزوُّدِ له. وفي هذا الخيار ينشد ابن الوردي:

فهذا يوصِّــي بأولادهِ

وهــذا يــودِّعُ جــيرانَــهُ

وهذا يهَيِّــئُ أشــغالَهُ

وهــذا يُجهِّزُ أكفــانَـــهُ

وهذا يصــالحُ أعداءهُ

وهــذا يــلاطف إخوانَــهُ

---

(٨) ديوان ابن الوردي:٨٧. وينظر نصّ هذه الرسالة أيضًا في كتاب: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، للسيوطي.ص: ١٩٥ وما بعدها.

والضَّبْعُ: قيل العضد، وقيل ما بين الإبط إلى نصف العضد، وقيل وسط العضد بلحمه يكون للإنسان وغيره، والجمع: أضْباع.

(٩) عانى العرب والمسلمون الأمرّيْن مع الأمراض المعدية. وهي، وإن كانت قد أفادتهم في تطوير قدراتهم الطبية وسلوكاتهم الوقائية؛ إلا أنها، في مقابل ذلك، قد كلّفتهم خسائر جسيمة في الأرواح والممتلكات، والحيوانية منها خاصة؛ بل إنها تسببت في انحطاط وسقوط عدة أنظمة ودُوَلٍ وحضارات. ولمزيد من التوسّع، يُراجَع بحث: الأمراض المعدية عند العرب والمسلمين. بقلم د. محمود الحاج قاسم محمد، مجلة (المورد)، ص: ١٢٩ وما بعدها.

(١٠) الأُتْرُجّ: مفرده أُتْرُجَّة، شجر من فصيلة البرتقاليات، عصيره حامض. وقد روي عن النبي (ﷺ) أنه كان يحب النظر إلى الأترج، وأنه قال، في ما روى البخاري: (مَثَل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل كالأترجّة ريحها طيب وطعمها طيب) [رقم الحديث: ٥٤٢٧].

(١١) رسالة النبا عن الوبا، ديوان ابن الوردي: ٨٩.

(١٢) المصدر نفسه: ٩١.

وهذا يوسِّـعُ إنفـاقَهُ
وهـذا يخـالِلُ مَنْ خانَـهُ
وهذا يحبِّسُ أمـلاكَهُ
وهـــذا يحرِّرُ غِلْمـانَـــهُ
وهذا يُغيِّـرُ أخلاقَـــهُ
وهــــذا يغيِّـر ميزانَـهُ
ألا إنَّ هذا الوبا قَدْ سَبا
وَقَدْ كانَ يرسـلُ طوفـانَهُ
فلا عاصمَ اليومَ من أمره
سوى رحمةِ اللهِ سبحانَهُ(١٣)

لقد ضاق الشعراء ذرعًا بالأوبئة والجوائح، ونالت من أجسـادهم وأجسـاد أحبَّتِهـم دونما رحمة أو إشـفاق؛ ففزعوا إلى الأدب شـعره ونثره يشتكون فظاعتهـا، ويُسِرُّون إليـه إبداعًا ضمّنوه شـدّتها وقسوتها.

ويستوقفنا الشاعر علي الجارم (ت: ١٣٦٨هـ) وهو يُصوِّرُ انتشار وباء الكوليرا «الهيضة المعوية» في بلدة «رشيد» بمصر ، وقد حصد الأرواحَ حصدًا وأفنى الناس بلا رحمة ولا هوادة. فيقول(١٤):

أَيُّ هَذَا «الْمِكْـرُوبُ» مَـهْلًا قَـلِيلا
قَدْ تَـجَاوَزْتَ فِـي سُرَاكَ السَّبِيلَا!
لَسْـتَ كَالْوَاوِ، أَنْتَ كَالْمِنْجَلِ الْحَـ
ـصّادِ، إنْ أَحْـسَنُوا لكَ التَّمْـثِيلا
مَـا غَلَـبْتَ النُّفُـوسَ بِالْعَزْمِ لَكِنْ
هَكَذَا يَـغْـلِبُ الْكَـثِيرُ الْـقَلِيلا
أَنْتَ كَالشَّيْبِ إِنْ دَهِمْتَ ابْنَ أُنْثَى
لمْ تُـزَايِلْ جَنْـبَيْهِ حَـتَّى يَـزُولا

يَا ثَـقِيـلَ الظِّـلَالِ آذَيْـتَ بِالْـما
لِ وَبِالنَّـفْسِ فَالـرَّحِيلَ الـرَّحِيلا
مَنْ يَـبِـتْ عِـنْدَهُ الْهِزَبْـرُ نَـزِيلا
كَانَ مِنْ قَـبْـلِ زَادهِ مَاكُـــولَا!
رُبَّ طِفْـلٍ تَـرَكْـتَ مِنْ غَـيْرِ ثَدْيٍ
يَضْـرِبُ الْأَرْضَ ضَجَّـةً وَعَوِيلَا!
وَفَـتَـاةٍ طَـرَقْـتَهَـــا لَيْـلَـةَ الْـعُرْ
سِ وَقَـبْلَ الْحَـلِـيلِ كُنْتَ الْحَلِيلا
كَحَّلُوا جَـفْـنَهَا فَكَـحَّلْـتَ فِـيـهَا
كُلَّ جَـفْنٍ أَسًى وَسُـهْـدًا طَـوِيـلا
خَـضَّبَـتْـهَا يَدُ الْمَـوَاشِطِ صُـبْحًا
فَـمَحَاهُ الْـمُـطَـهِّـرُونَ أَصِيـلا
مَا رَحِـمْتَ الْـعُيُونَ تِـلْكَ اللَّوَاتِي
تَـرَكَتْ كُلَّ عَاشِـــقٍ مَـــذْهُـــولا
إنَّ فِي مِـصْرَ غَـيْرَ مَـوْتِـكَ مَـوْتًا
تَـرَكَ الْأَرْوَعَ الْأَعَـــزَّ ذَلِـــيـــلا
فَـارْتَحِـلْ بَـارِدَ الْـفُـؤَادِ قَرِيرًا
مُـرْوِيًـا مِـنْ دَمِ الْـعِبَادِ الْـغَـلِـيلا

وفي مُقطَّعَةٍ شِـعريّةٍ أخرى يُصوِّرُ لنا الشَّـاعرُ علـيّ الجارمُ غَضَـبَ الطبيعة وعَبوسَـها، وتقلُّبَها واكفهرارَهـا، وقـد هبـت ذات يومِ خميـسٍ رياح عاتيـة باردة لـم تتحمّلهـا الأبدان، ولم تسـتطع الصمود أمامها حيوانات الفلا. وفي ذلك يقول(١٥):

وَيْلاهُ من يَوْمِ الخميــــ
ــــسِ فإنَّهُ يومٌ عَبُوسْ
فيه تحـارَبَتِ الريـا
حُ فلا تَقُلْ حَرْبَ الْبَسُوس

(١٣) المصدر نفسه: ٩١.
(١٤) ديوان علي الجارم ٢/ ٤٩٦ ٤٩٧ (بتصرف الحذف).
(١٥) المصدر نفسه ١/ ٢٣٦.

خـافَتْ غَوائِلَهُ الـغُزَا

لَـةُ فـالغمـامُ لهـا تُرُوس

يـومٌ أحَطْنَا بـاللَّظَى

فيهِ ونكَّسْنـــا الـــرؤوس

فكأنَّنَا قُمْنَا نُؤيِّـــــ

ـــــدُ فيه مُعْتَقَدَ المَجُوس

المحور الثاني: في أسباب العلل والأدواء

تتعـدّد أسـباب العلـل والمـوت وتتكاثـر، بين مـا هو ذاتي ومـا هو طبَعي. فأمـا الذاتي فنظيرَ التلوّث وإهمال النظافة، وكـذا إلحاق الأذى بالماء ومصـادره، وسـوء اسـتغلال المـوارد البيئية، أو إشـعالَ فتيل الحـروب والنزاعات لأطمـاع ذاتية ومنافـع مخصوصـة، واسـتفحال الغلاء وسـوء التدبـير[16]. وأما ما هو من فعـل الطبيعة فمثيلَ الجفـاف والريـاح، والأوبئـة والجوائـح، والفقر والمجاعات.

قال ابن خلـدون (ت ٨٠٨هــ) وقد ربط أسـباب العلل بازدحام العمـران: «وأما كثرة المَوَتان فلها أسباب من كثرة المجاعات، أو كثرة الفتن لاختلال الدولـة فيكثـر الهَرْجُ والقتـل، أو وقـوعُ الوباء. وسـببه في الغالـب فسـادُ الهواء بكثـرة العمران لكثرة ما يخالطه من العَفَن والرطوبات الفاسدة. وإذا فَسُـد الهـواء وهـو غِـذاء الـروح الحيواني ومُلابِسُـه دائمـا فيسري الفسـاد إلى مزاجه. فإن كان الفسـاد قويا وقع المرض في الرئة. وهذه هي الطواعـينُ وأمراضُهـا مخصوصـةٌ بالرئـة. وإن كان الفسـاد دون القويِّ والكثيـرِ فيكثـُر العفن ويتضاعف، فَتَكْثُـرُ الحُمَّيَاتُ في الأمزجة وتمرَضُ الأبدان وتهلَك»[17].

وإن الجـوع الذي هو نتيجـة حتمية من نتائج التلوث والجفـاف والقحط والريـاح والحروب... أهـمُّ أسـباب الأمـراض والأوبئـة؛ ورأسُ العلـل والمهالك. بل «إن معظم المجاعات كانت مرتبطة إما بالأحداث الطبيعية غـير العادية وإما بالصدمات البيئية»[18].

فمع الجوع يعزّ الغذاء ويندر القوت، وتشـيع الفاقـة وينتشر العَـوَز، فتهزل الأجسـاد وتنحف الجسـوم، ثم تتـسرّب الأمراض وتنفـذ العلل؛ إذ يصبـح المـأكلُ أيَّ شيء قريب مُتـاحٍ، صَلُحَ أم لم يَصْلُح، حِلًّا كان أم حراما.

ويعـدِّدُ ابـنُ الجَوزيّ (ت ٥٩٧هــــ) في فصل من كتابـه: «المدهش»، خصّه للحديـث عن «الجدوب وعمـوم الموتِ»، أشـدّ النكبات التـي اكتوى نارَها المسـلمون، فيذكر منها ما اتّصل بالجوع أساسًا. ومن ذلك أنه في سـنة أربعٍ وثلاثين وثلاثِمائةٍ ذُبح الأطفال، وأُكِلـت الجيف، وبيعَ العقـار برغيفيْن. وأنه في سـنةِ ثمانٍ وأربعيَن وأربعِمائةٍ عمّ القحط، فأُكلـت الميتة، واسـتشرى الغلاء، ومـات الناس.

---

(١٦) خصّ المقريزي (ت ٨٤٥هــ) أزمة الغلاء التي ضربت مصر منذ القدم وإلى عصره (القرن التاسع الهجري) بتأريخ دقيق يسلّط فيه الضوء على أسبابه ودواعيه وسُبُل القضاء عليه؛ بل إنه جعل الغلاء بابًا من أبواب حلول الأمراض والأوبئة على الأمم، وسببًا مباشرًا في اختلال أوضاع الدول اقتصاديًّا واجتماعيًّا وإداريًّا، فيكون انهيارها بذلك محتوما، وزوالُها لا محالةَ واقعا. يُنظر: كتابه: إغاثة الأمة بكشف الغمة.

(١٧) مقدمة ابن خلدون: ٢٣٨.

(١٨) يُنظر: عار الجوع: ٥٥.

أنه في السنة التي تَلَتْها وقع وباء، فتابَ الناس كلُّهم، وأراقوا الخمر ولزموا المساجد. وأنه في سنة اثنتين وستين وأربعِمائة اشتدّ الجوع والوباء بمصر، حتى أكل الناسُ بعضَهم، واستفحش الغلاء، وخرج وزير صاحب مصر يتفقّد الأسواق فنزل عن بغلته، فأخذها ثلاثةٌ فأكلوها فَصُلِبوا، فأصبح الناس لا يرون إلا عظامَهم تحت خشبهم وقد أُكِلوا[١٩].

وينقل إلينا الدكتور بكري شيخ أمين خبر مجاعة وقعت في عهد المماليك، نتجت عن جفافٍ شحَّ بسببه ماء النيل، فيقول: «زمن اشتدت فيه الأزمات وكثرت المجاعات، واكتسحت البلاد، فذهب ضحيتَها الكثيرون(...) ولقد زاد الطين بِلَّةً المجاعات المتوالية وأشهرها تلك التي حدثت سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م حين شَحَّ ماء النيل، ونقص نقصًا كبيرا، فجفّت الآبار، وفات على الفلاحين أوان الزرع، وندرت المحاصيل. وزاد الحال شدة أن ريحًا سوداء مظلمةً هبَّتْ على البلاد حاملة ترابا كسا الزرع، ففسد كل شيء، وارتفع ثمن القوت ارتفاعًا مريعًا. فعجز عن شرائه الفقراء وهلك معظم الدواب، كما ماتت الكلاب والقطط جوعًا؛ ثم اشتدت الأزمة فأكل الناس الميتة من الكلاب والمواشي وبني آدم، وأكلت النساء أولادهن الموتَى؛ وكان الناس يبيعون أولادهم لشراء القوت، ونهب الأهالي الخبز من الأفران والحوانيت، ولم يكن الخبز يخرج من الأفران إلا مع حراس يحملون العصي، ومع ذلك فقد كان الجوع يدفع كثيرين منهم لأن يلقوا أنفسهم على الخبز ليختطفوا منه شيئًا، غير مبالين بما ينالون على رأسهم وبدنهم من ضرب شديد، وكثيرا ما ضبط أشخاص مع كل منهم كتف طفل أو فخذه أو شيء من لحمه، ولذا كان الأطفال من أوائل ضحايا تلك المجاعة»[٢٠].

وبعد هذه المجاعة الفتاكة بخمسة عقود ونصف، تظهر مجاعة أخرى رافقها وباء الطاعون، يصف الدكتور بكري تَبِعاتِها بالقول: «وظهرت مجاعة أخرى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ورافقها الطاعون فبلغ عدد الموتى في مدينة القاهرة في شهرين تسعَمائة ألف، وقلّت المزروعات لموت الفلاحين، فانتشر القحط والجوع، وشوهدت الخيول والجمال والحمير والطيور ملقاةً في البراري والطرقات، ولم يخلُ بيت من نواح على ميت، وخلت كثير من الدور من سكانها لأنهم ماتوا؛ وامتلأت المقابر بالناس، فكان الموتى يُلقون في الطرقات على التراب»[٢١].

فالجوع كافر كما يُقال، والفقرُ يُذكي شرارتَه ويقدح زناده ليشتعل فوضى وشغبًا وفتنةً تحرق الأخضر واليابس، وصدق قولُ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام «لو كان الفقر رجلا لقتلته»، ولا خلاف إذًا أن «الجوع والفقر مترابطان ولا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر»[٢٢].

قال الهمذاني (ت ٣٩٨هـ) في المقامة المجاعية: «كنتُ ببغدادَ عام مجاعة، فمِلتُ إلى جماعة،

(١٩) الصفحات: ٦٦، ٦٧، ٦٨ (بتصرف).

(٢٠) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني: ٤٥،٤٦ (بتصرف).

(٢١) المرجع نفسه: ٤٦.

(٢٢) عار الجوع: ١٦.

وفيهم فتىً فقال: ما خطبُك؟ قلتُ: حالان لا يُفلِحُ صاحبُهما: فقيرٌ كَدهُ الجوعُ، وغريبٌ لا يمكنُه الرجوعُ. فقال الغلام: أيُّ الثُّلمَتَيْنِ تُقَدِّمُ سَدَّها؟ قلت الجوعَ فقد بلغ مِنِّي مَبلغًا»[٢٣].

وإن الحروبَ وما يرافقها من حصار ومصادرة للأقوات والأرزاق مدعاةٌ للجوع والفاقة، وهذه مَنْفَذٌ للعلل والأدواء بأكل المحظور وشُرْبِ الملوّث. وفي هذا يروي الأمير شكيب أرسلان عن المقرّي ما أحدثه حصار مالقة الذي ضربه فرديناند عليها، فيقول: «وضيَّقوا عليهم بالحِصار إلى أنْ فَنيَ ما عندهم من الطعام، فأكلوا الخيلَ والمواشي والحمير، وأثَّر فيهم الجوع»[٢٤].

وإذا كانت الحروب والنزاعات مسبِّبَةً للمجاعات والأوبئة؛ فإن العكس صحيحٌ أيضا! فحينما ينحبس المطر ويجفّ الزرع والضرع، تكثر المجاعات والأوبئة. وإذا عَزَّ على الناس تَصَيُّدُ المأكل طفقوا إلى إحلال التسيُّب وأغار بعضهم على بعض نهبًا وقتلًا. وهذه الكوارث تسببت في انمحاءِ مدنٍ وزوالِ تجمُّعاتٍ سكانية[٢٥]. يقول مؤلِّف كتاب «مدن موريتانيا العتيقة»: «لقد عرفت القصور الصحراوية تفشيَ وانتشارَ الكوارث، رافقتها حروب أهلية، كما أن وتيرة غزو القبائل المحاربة لها تزايدت(...) وقد شهدت بعض من الحواضر هزاتٍ أرضيةً خفيفة، وإن لم تكن آثارُها كارثيةً بأتمّ معنى للكلمة، إلا أنها كانت تشيع جوا من البلبلة وعدم الاطمئنان، وتلحق بعض الأضرار المادية بالتجمعات السكنية»[٢٦].

وهناك جانب آخر من جوانب التأثير الذي تحدثه الكوارث والمحن، وهو جانب الحياة العِلميّة وتحصيل الفكر والعلوم والفنون والآداب وغيرها. وعن هذا التأثير السلبي يحدثنا الخليل النحوي عن الحياة العِلميّة في بلاد شنقيط فيقول: «ابتدع الشناقطة المحضرة، بنية ثقافية طوّعوها لبيئتهم الاقتصادية والاجتماعية، فكانت خلية في نسيج حضاري شامل متكامل(...) تستمد قُوتَها المادي من ثمرات الاقتصاد البدوي، فإذا نضبت هذه الموارد أو شحّت انعكس ذلك على صحة المحضرة(...) وإن البلاد تعرضت في العهود الأخيرة لدورات جفاف كثيرة أثّرت سلبًا على الحياة العِلميّة، في سنين عجاف. وتعرضت البلاد لطواعين وأوبئة فتكت بالبشر والماشية(...) وكان للتصحّر ما كان للجفاف(...) وبسبب التصحّر تباطأت حركة العمران في البلد»[٢٧].

وينقل لنا المكناسي وَجهًا آخر مما يُتَحَصَّل مَعَ الأوباء من الهلاك والمضارّ، وهو موت العلماء وفَقْد أرباب الفكر. فقد روى في رحلته أنه في وباء ١٢٠٠هـ الذي أصاب مدينة تونس «قد مات من علمائها وطلبتها كثير في الوباء الذي كان عندهم في سنة مائتين وألف وما بعدها (...) وأن أهلها دفنوا

(٢٣) مقامات بديع الزمان الهمذاني: ١٥٣ (بتصرف).

والثُّلمَةُ: الفُرْجَةُ في المهدوم من أثر الهدم. وكأنه يقول له: أيّ الحالين أولى بالسَّدِّ، الجوع أم كربة الاغتراب؟

(٢٤) خلاصة تاريخ الأندلس :٢٥٥.

(٢٥) ينظر فصل: في الزلازل والآيات. من كتاب المدهش للجوزي: ٦٦، وما يليها.

(٢٦)مدن موريتانيا العتيقة: ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨،(بتصرف).

(٢٧) بلاد شنقيط (المنارة والرباط):٤٣٧،٤٣٨ (بتصرف).

في هـذا الوباء زُهاء ثمانين ألفا، فقد كانوا يدفنون في اليوم الخمسَمائة وما يقرب من الألف»[٢٨].

ولا بد أن نشير إلى أن العلل والأمراض، بل الهلاك أيضا، قد لحق الناس إثر عوامل بَشَريّة أخرى، من قبيل الحسد والعين والسحر. ومما يُروى أنه كان لزهير بن أبي سُلمى ابنٌ يُقال له سالم، وهو جميل الوجه حَسَن الشَّعر، فأهدى رجل إلى زهير بُرْدين، فلبسهما ابنه سالمٌ وركب فرسًا خيارًا، فَمَرَّ بماءةٍ يُقــال لها النُّتــاءة، فرأته امرأةٌ فقالــت: «ما رأيتُ كاليومِ قَطُّ رجلًا ولا بُردين ولا فَرســا». فما مَضَى قَليلًا حتَّى عثر به الفرسُ، فاندقَّت عنقُهُ، وانشـقَّ البردان، واندقَّت عنقُ الفرس[٢٩]. فقال زهير يُوَثِّقُ هذه الحادثة ويرثي ابنَه:

رَأَت رَجُلًا، لاقى مِنَ العَيشِ غِبطَةً
وَأَخطَأَهُ، فيها، الأُمورُ العَظائِمُ
وَشَبَّ لَهُ فيهــا بَنــونَ، وَتوبِعَتْ
سَــلامَةُ أَعــوامٍ، لَــهُ، وَغَنــائِـمُ
فَأَصبَحَ مَحبورًا يُنَظِّـرُ حَولَــهُ
بِمَغبَطَةٍ، لَــو أَنَّ ذلِـكَ دائِـــمُ
وَعِندي، مِنَ الأَيّامِ، ما لَيسَ عِندهُ
فَقُلــتُ: تَعَلَّــم أَنَّمتا أَنْتَ حــالِمُ
لَعَلَّكِ يَومًا أَن تُراعــي بِفاجِعٍ
كَما راعَنــي، يَومَ النُّتاءَةِ، سالِمُ
يُديرونَني عَن سالِمٍ وَأُديرُهُم
وَجِلْدَةُ بَينَ العَينِ وَالأَنفِ سالِمُ[٣٠]

أما أدواء السـحر وعلله فكثيرة، وقد أوذي منها رسـولنا محمد (ﷺ) بذاته، وفي مصادر الحديث الشريـف قصـة وجعـه (ﷺ)مـن سـحرِ رجل يهودي[٣١]، ثم من سحر رجل من بني زريق يقال له لَبيـدُ بنُ الأعصم؛ فما نَشِـطَ مـن عِقاله(ﷺ) إِلَّا بعد أن أوحي له بالسّحرة وبموضع السـحر، وبعد أن اسـتخرجه من مكمنه فأمر به فَدُفِن[٣٢]. ولذلك نفى ربُّنا جل جلالُه الفلاح عن السـحرة لما يلحقونه بالخَلق من أذى واعتلال؛ فقال عز وجل: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[٣٣].

واليـوم؛ انضافـت أسـباب جديدة وكثـيرة تقود الإنسان إلى الأسـقام والآلام، وتُفضي به إلى الردى والحِمـام. من قبيل التدخـين وأصناف المخدرات، والخمـور وأنـواع المسْـكِرات، وحـوادث الطريق والسـيارات، وتنـاول أطعمة معدَّلَـة كيميائيا أو تحتـوي موادَّ تفتك بالجسـوم وتُلحق بها الأورامَ والعاهات. فظهرت أمـراض خطيرة احتار الطب الحديـث في أمرهـا، وأعجـزتِ المتخصّصـين عن علاجهـا، مثـل: الإيبـولا، وسـارس، والسرطان، والسيدا، والإنفلوانزا، وكورونا، وكورونا المتحوِّر، ويعلـم الله مـا يخفيه الغيب عنا في قابل السـنين والأعوام، وقانا الله شرّ ذلك وعافانا منه.

المحور الثالث: في الوقاية والاحتراس

معلـومٌ أن قضـاءَ اللـه ليس منه مَهـرب، وما صَرّفه على عباده غير مردود؛ ولكن اتّقاءَ صروف الدهر قبـل حدوثِها خيرٌ، والأخذَ بأسـبابِ النجاة منها مُرَغّب فيه، متوجِّبٌ فعله.

---

(٢٨) رحلة المكناسي: ٣٢٥ – ٣٢٦.

(٢٩) ينظر: شعر زهير بن أبي سُلمى:٢٧٠.

(٣٠) شعر زهير بن أبي سُلمى:٢٧١.

(٣١) صحيح النسائي (الحديث رقم: ٤٠٩١).

(٣٢) صحيح البخاري (الحديث رقم: ٥٧٦٣). صحيح مسلم (الحديث رقم: ٢١٨٩).

(٣٣) سورة طه. الآية: ٦٩.

ومن سبل الاحتراس والاحتراز من الأمراض والعلل عدمُ المخالطة حين ظهور أمارات العِلّة. ومن ذلك ما رُوِيَ عن ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) أنه دُعي إلى الغداء وكان مزكوما، فقال: «لستُ اليومَ بمؤاكِلٍ للكرام، لأنَني مزكوم، والزُّكمة قبيحةُ الجوار، مانعةٌ من عشرة الأحرار»[٣٤].

وقال الشريفُ المرتضَى (ت ٤٣٦هـ) يَحضُّ على استباق المرض بالوقاية والاحتراس قبل أن يسكن البدن:

وداوِ الداءَ قبلَ تقولُ فيه
طَبيبُ الداءِ أعيا فاستطارا[٣٥]

وقال الإمام علي بن أبي طالب عليه السَّلام (ت ٤٠هـ) في الموضوع ذاته:

دَوَاؤكَ فيكَ وما تَشْعُرُ
وداؤكَ منكَ وما تبصرُ
وتحسبُ أنكَ جرمٌ صغيرٌ
وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ[٣٦]

ومن موجبات الوقاية المبادرةُ إلى النظافة والعناية بها. ولذلك فإن تنشئة الأجيال على النظافة والعمل بها دوما لمّا يحول دون انتشار العدوى، بل لما يقي من الأمراض والأدواء، ويحصّن الجسوم من الميكروبات والطفيليات. وهذا الشاعر علي الدرويش (ت ١٢٦٩هـ) يتنبّه إلى انتهاء ابنه الصغير من طعامه، ثم انطلاقه دون أن ينظّف يديه وأسنانه مما علق بهما، فينقل الخبر إلى مؤدِّب ابنه كي يزجره ويوبّخه ويعاقبه. فيقول:

أَكَلَ الغلامُ ولم يُغَسِّل بعدما
أكلَ الطعامَ وفرَّ عنّي واحتجبْ
وسألتُ عنه فقيل لي لمْ نَدْره
حتَّى تَحَقَّقَ أنه لكَ قدْ ذهبْ
فإذا أتى الكتَّابَ فَاقرعْ بالعصا
فوقَ الحصيرِ وَمُسَّ ما فوقَ الرُّكَبْ
َواعْلِمْهُ أنّ الاتّساخَ مذمّةٌ
ورجوعَهُ مُتَسَخِّبًا غَيْرُ الأَدَبْ
وَأَفِدْهُ أنّ الدينَ حُبُّ نظافةٍ
وَتَشَبُّثُ الأوساخِ مُفْضٍ للجَرَبْ
إنّ الصغيرَ يَشُبُّ مَعْ عَاداتِهِ
حتّى يَشيبَ وإنّه معَ مَنْ غَلَبْ[٣٧]

فإذا لم يكن للمرء من الإصابة بدٌّ، ولم يتحصَّلْ له من التوقّي فَلاتٌ، ونيلَ من مأمنه وقد أخذَ بأسباب الحرص والحذر؛ فإن بابَ العلاجِ منشرعٌ أمامه، وعليه به مادامت الخياراتُ معدومة، والحيل نافدة.

المحور الرابع: في العلاج والاستشفاء، وآخر الدواء الكيّ

خَلَقَ الله عز وجلّ الداء وخلق الدواء، وأنزلَ سبحانَه وتعالى الأسقام ويَسَّرَ لها الشفاء؛ وفي ذلك آيةٌ واختبار، وحكمة وابتلاء. قال الله:﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَن، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ

(٣٤) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ١/ ٣٤٤.
وينظر أيضًا: الطب والأدب، علائق التاريخ والفن: ٨٨.
(٣٥) الشريف المرتضى: ديوانه: ١١٨١.
(٣٦) ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:٤٥.
(٣٧) الإشعار بحميد الأشعار: ٨٥.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[٣٨]. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[٣٩]. بل إن الله جلَّ شأنه ابتلى أنبياءه ورسلَه، فاحتسبوا واصطبروا، ولَهَجوا بالدعاء والتوسّل لدفع الداء وجلب الشفاء. وإن في ما أصاب أيوبَ عليه السلام من سَقَمٍ مُمِضٍّ موجعٍ لعبرةً ومثالًا. قال الله في محكم تنزيله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[٤٠].

وإنه لمّا كانت الوقايةُ أولَ حقٍّ للأبدانِ على أصحابها، فإنه لمن الواجب العمل على تفعيلها في علاقة الإنسان بنفسه وفي علاقته بالآخرين، متمثلا قول رسولنا الكريم(ﷺ): (إنّ لنفسِكَ عليكَ حقا). لكن «إذا حُمَّ القضاء على امرئ» واعتلّ بدنه واستسلم للأدواء بعد اتّقاء؛ فليس له إلا عيادةُ الأطباء، والخضوع للعلاج، وتعاطي ما يصفونه له من العقاقير والأدوية. ثم إنه مُلْزَمٌ حتمًا بالدعاء والتبتّل إلى الله الذي لا شفاء إلا شفاؤه، باستحضار قوله عزَّ وجلَّ في مُحكم التنزيل: ﴿وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٤١].

ولإعداد النفس وتحضيرها للعلاج تنبّهَ الشعراءُ والأُدباءُ مُنذُ القدم إلى مرض عصرنا اليوم، وهو «الضغط النفسي» الذي ينعكس على الدورة الدموية فسائر الجسد، وهو أبو العلل أجمعِها.

(٣٨) سورة الفجر. الآيتان: ١٥، ١٦.

(٣٩) سورة محمد. الآية: ٣١.

(٤٠) سورة الأنبياء. الآيتان: ٨٣ – ٨٤.

(٤١) سورة الشعراء، الآية: ٨٠.

فوجَّهُوا الناس إلى التسلية والترويح عن النفس، وإلى درء الهموم ودفع أسباب الكروب.

ذكر العامليُّ (ت ١٠٣٠هـ) في كتابه «الكشكول» في باب «أسباب تخفيف الشدائد وتسهيل المصائب»، أن من تلك الأسباب إشعارَ النفس بما تعلمه من حلول الفناء والمصير إلى الانقضاء، إذ ليس للدنيا حال يدوم، ولا لمخلوق بقاءٌ معلوم. وأن منها أن يستشعر أنه في كل يوم يمر منها شطرٌ ويذهب منها جانب حتى تنجلي وأنت عنها غافل. قال الشاعر:

تَسَلَّ عنِ الهُمومِ فليسَ شيءٌ
يُقيمُ، فما همومُكَ بالمُقيمَهْ
لعلَّ اللهَ ينظُرُ بعد هذا
إليكَ بنظرةٍ منهُ رحيمَهْ[٤٢]

وقد سُئل الحسن بن علي (ت ٤٩هـ) عليهما السلام: مَن أعظمُ الناس قَدرًا؟ فقال: من لم يُبالِ بالدنيا بِيَدِ مَنْ كانت![٤٣].

فإذا اطمأنت النفس وهدأت، وارتاحت وانشرحت؛ استجابت للعلاج وتأثّرت بالتطبيب. فقد روي عن من لا ينطق عن الهوى أنه قال(ﷺ): «تداوَوا؛ فإنَّ اللّهَ سبحانَهُ لم يضع داءً إلّا وضعَ لَهُ شفاءً إلّا الْهرمَ»[٤٤].

(٤٢) الكشكول ٢/ ٦٩.

(٤٣) المصدر نفسه ٢/ ٧٠.

(٤٤) الأدب المفرد ١/ ١٠٩.

وقد عُني نبيّ الأمة محمد(ﷺ) بسلامة أبدان الناس وصحتها، إذ في ذلك إقدارٌ على تحمّل الأمانة، والقيام بما هو منوطٌ بهم من واجبات العبادة والجهاد. فحضّ عليه السلام على الوقاية من الأمراض أوّلًا، ثُمَّ تطبيبها بعد ذلك. لمزيدٍ من التوسُّع في هذا الموضوع، نحيل على مراجعة بحث: الظواهر الصحية والطبية في أحاديث الرسول محمد(ﷺ). ص:١١٠،وما بعدها.

وما أحسنَ قولَ من قال:

لكل داءٍ دواءٌ يُستَطبُّ بـه

إلا الحماقةَ والطاعونَ والهرَما(٤٥)

فـإنْ عجـزَ الطبيـب، ويَئِسَ البعيـد والقريب، فَليَتَحَـلَّ العليل، أولًا، بالصبر والجَلَد، ثم لِيَتَضَرَّعْ إلى ربِّهِ يسألُه الشفاء والعافية والمدد.

أنشدت امرأةٌ من العرب:

أيها الإنسـانُ صَـبْرًا

إنَّ بعـدَ العُسـرِ يُسْـرا

اِشْرَبِ الصَّبْرَ وإنْ كـا

نَ مـنَ الـصّبرِ أَمَـرَّا(٤٦)

وقـال عمـر بن عبد العزيـز رضي الله عنه (ت ١٠١هـــ): «ما أنعمَ الله على عبـد نعمةً فانتزعها منـه، ثم عاضَه عنها الصبرَ؛ إلا كان ما عاضه عنه أفضلَ مما انتزعه منه»(٤٧).

وتـضرّعَ ابـنُ الـورديِّ إلى الله يسـتجديه رفع الوبـاء، حين تبيَّن له أنْ لا مَنجَـى مِن الله إلَّا إليهِ، فتوسَّله قائلًا:

يا ربُّ بالهادي النبـيِّ المجتبـى

أغمدْ عنِ الإسلامِ أسيافَ الوبا

يـا ربُّ لا نَشْـكُو أليمَ عـذابِهِ

إلاّ إليكَ فقـدْ أخـافَ وأرعَبَـا

كمْ حلَّ فـي دارٍ فبدَّدَ شملَ منْ

فيها فلا يجدونَ منهُ مَهْرَبـا

يا ربُّ لطفًا بالعبادِ فمـا لهم

ربٌّ سواكَ يقيهمُ المُستضْعَبـا

إنَّا اعترفنا بـالذُّنوبِ فكُلُّنـا

عاصٍ مُسيءٌ، للعذابِ استوجَبا

إنْ كانَ لا يرجوكَ إلاّ محسنٌ

في العالمينَ فمنْ يجيـرُ المُذنِبا

يا ربُّ إنّا نسـتقيلُكَ حادثًا

أدهى منَ المرضِ الثقيلِ وأصعبا

إنّـا تشفَّعْنـا إليكَ بـأحمدٍ

أعلـى الورى قدرًا وأرفعَ مَنْصبا

أنْ ترفعَ الطاعونَ عنّا عاجلا

وتجيرَنـا مِـنْ شـرهِ وتجنِّبـا

وتعيدَ ما عوّدتنا مِـنْ نعمةٍ

عوّدتَنـا منكَ الكثيـرَ الطّيِّبـا

ثمَّ الصلاةُ على النبـيِّ وآلِهِ

وصِحابِهِ والغُرِّ مِنْ أهلِ العَبا(٤٨)

ولا يحـق أن ننسى أنَّ الأدواءَ امتحـانٌ من رب العالـمين لعباده، وصروفَ الدهرِ اختبارٌ يقيس به الخالق درجة اليقين لدى خلقِه، ومدى رضاهُم بما يَقضيه عليهم من الشدائدِ والمِحَن، والبلايا والفتن، والجوائح والأوبئة وسائر النِّقم. قال تعالى: ﴿إنّما يُوَفَّى الصابرونَ أجْرَهُم بغيرِ حِساب﴾(٤٩).

ومـن شـعر المتنبـي (ت ٣٥٣) يواجه اعتلالَه بالعلاج الطبي وبالصبر على الابتلاء، قوله:

---

(٤٥) ما رواه الواعون:١٧٣.

(٤٦) الكشكول. ٢/ ٧١.

(٤٧) الظرائف واللطائف واليواقيت في بعض المواقيت: ١٧٤.

(٤٨) ما رواه الواعون: ٢٠٥ (في الهامش الثاني، ويعزوها المحقق لمخطوط ما)، ولم أجدها في ديوان ابن الوردي.

(٤٩) سورة الزمر. الآية: ١٠.

يَقُولُ لِيَ الطّبيبُ أكَلْتَ شَيئا

وَداؤكَ فــي شَرَابِكَ وَالطّعامِ

فإنْ أمرَضْ فما مرِضَ اصْطِباري

وَإنْ أُحْمَمْ فَمَا حُمَّ اعتــزَامي(٥٠)

وممّــا يرويه الثعالبيّ (ت ٤٢٩هــ) أنّ الفضلَ بن سهل بَرِئَ من علة عرَضت له فجلس إليه الناس فهنّأوه بالعافية، فلما فرغوا من كلامهم قال لهم: إنّ في العِلــل لَنِعَمًا لا يَنبغي للعُقلاء أن يَجحدوها، منهــا تمحيص الذنــوب، وتَعَرُّضٌ لثــواب الصبر، وإيقــاظٌ مــن الغفلــة، واذّكارٌ بالنعمــةِ الموجودة في حــال الصحــة، ورضىً بما قدّره اللــه وقضاه، واستدعاءٌ للتوبة، وحضٌّ على الصَدَقة، وفَيْءُ قَضاءِ اللهِ تعــالى وقدره من بعد الخــبرة. فحفظ الناسُ كلامَه ونَسوا ما قاله غيره(٥١).

وكتب الشــاعر ابنُ ســناء المُلــك (ت ٦٠٨هــ) إلى مريض، داعيًا بعافيته:

شَفَاكَ اللهُ مِنْ دائِكْ

وَعَــدّاهُ لأعــدائــكْ

وأبْرَا مِــنْكَ بــالبُرْءِ

قُلــوبًا لأدْوائــكْ

أخٌ فــي الله يَهواكَ

ويجْري خلْفَ أهوائكْ

ويدعو اللهَ في السِّرِّ

وفــي الجَهْرِ بإبْقائِكْ(٥٢)

والشاعر الشيخ إبراهيم الرياحي (ت: ١٢٦٦هــ) راعه حــال الناس مع وباء الطاعــون الفتّاك، وما أحدثــه من موت ونفــوق وهلاك؛ فتوجّــهَ إلى ربه بالدعاء والتبتُّل، واسترسَــلَ في الترجّي والاستغاثة والتوسّل. وفي ذلك يقول مُستجديًا رَبَّهُ:

يا إلاهي وأنت نِعْمَ اللّجاءُ

عَافِنَا واشفِنا فمنك الشّفاءُ

إنَّ هذا الطاعونَ نارٌ تَلَظَّى

لقلوب التوحيد منها اصْطِلاَءُ

رَبَّنَا رَبَّنَا إليــك التجَأْنــا

ما لــنا –ربَّنا- ســواكَ الْتِجَاءُ

بافْتقارٍ مِنّتا وذُلٍّ أَتَيْنَا

مــا لنــا عِزَّةٌ ولا اســتغناء

نَقْرَعُ البابَ بالدِّعاءِ، ونرجو

فَلَنِعْمَ الدُّعَــا ونِعْــمَ الرّجــاءُ

أَبْقِ يا ربَّنا علينا وَدارِكْ

باقيًا قَبْلَ أن يَعُمَّ الفناء(٥٣)

المحور الخامــس: كورونــا ومتحوّراته (ولنا من الابتلاء نصيب)

تتبَّعنــا في هــذا البحــثِ مــا تعاقب عــلى الأقوام والعصــور مــن الأوبئــة والجوائــح، والأمــراض والآفــات. وفي هــذا القفل منها ســنعرج، بعجالة، على وباءِ كورونــا «كوفيد-١٩» ومتحوراتِه، الذي اجتــاح العالم مع أواخر عــام ٢٠١٩م، فأتى على أرواح ملايــين البــشر في مختلف أنحــاء المعمور، وأدخــلَ النــاسَ في حَجْــرٍ صحيٍّ ألزَمَهــم بيوتَهم أَشْهُرًا، لا يبرحونها إلا لحاجة مُلحّة، ولا يغادرونها إلَّا لِضرُورةٍ لا تحتملُ التأجيل.

(٥٠) شرح ديوان المتنبي ٤/ ٢٨٧.

(٥١) الظرائف واللطائف:٣٧٠.

(٥٢) ديوان ابن سناء الملك:٥٩٥.

(٥٣) ديوانه : ٢٢،٢٣.

وسنســتدعي في هذه العجالة أنموذجًا شِــعريّا واحــدًا، نتَمثّل به على أثَر هذه الجائحة على الأدباء والشعراء، ومدى اســتيعابهم خطورةَ هذا الوباء، ثم مدَى قيــام الأدب بأدواره التوعوية ورســالاته التحسيسية، إسهامًا في التعبئة المجتمعية والتربية على الوقاية والتعايش مع الجائحة.

هــذا الشــاهد الشِــعريّ سنســوقه من منجز الشــاعر الإماراتــي العربــي مانع ســعيد العتيبة (ولــد: ١٩٤٦م)، وقد ضَمَّنَه حَمولــةً من التفاؤل بالانتصار على الوباء، وبعودة الحياة إلى طبيعتها؛ لكنــه في الآن ذاتــه مــرَّرَ عديــدَ النصائــح الطبية والسلوكيَّات الوقائية التي يتعيَّن إعمالُها بصرامة. فقال:

يا مَنْ إلى نَادي الأَسَــى تَدْعونــا
سَنَعيشُ رَغم توحُّشِ الكورونا
فالخوفُ قد جعل الحياةَ جَهَنَّمًا
والخــائفــون بِذِلَّةٍ يَبْـكونــا
أضَعُ القِناعَ إذا خَرَجْتُ لِحاجَةٍ
لأَشُــدَّ عَزْمَ مَناعتــي وأَصونــا
مَنْ لَمْ يَمُتْ بالسيف مات بغيره
يــا مَنْ لأمــواتِ الوَبَا تَحْصونــا
عِشْ مُطْمَئنًّا فالوباءُ سَيَنْتَهــي
والعيشُ يَغْدو بعتدهُ مَــأمونــا
لا تُغْلِقِ الأبواب خوفًا منْ أخٍ
آتٍ يَزورُ ولا تَكُــنْ مَحْــزونــا
هَلِّلْ وَرَحِّبْ بالجميع ولا تَخَفْ
مــا كــان ذاكَ تَصَرُّفًا مَجْنونــا
واجعلْ قِناعَكَ عازلًا يا صاحبي
هُمْ هَكَذا الخُبَــراءُ قدْ أَوْصُونا(٥٤)

خـــاتمة:

نســلِّمُ في نهاية هذا البحث بأنَّ الشعراءَ والأدباءَ لمْ يكونوا بمعزلٍ عمَّا يعــتري أمَمَهم من تقلُّبات، أو ما تنزلُ عــلى أقوامهم مــن صروفٍ مُدْلَهِمّات، ومن مصائبَ وكوارثَ وأحداثٍ جَسيمات.

فالأدب شــعرهُ ونثرهُ تُرجمانُ الشــعوب ولسانُ حالهــم، وســجلُّ تاريخِهــم وأيامِهــم وأحوالِهم، تتناقله الشــفاه والكتب، وتتعــاوره الأجيال حُقُبًا عــن حُقُب، يوثِّق بأمانة أحــداثَ حياتِهم، ويجمعُ بدقة أصنافَ علومِهم؛ وليس عنا ببعيد قول عمر بن الخطــاب رضي اللــه عنه (ت ٢٣هــ): «كان الشعرُ علمَ قوم لم يكن لهم علمٌ أصحَّ منه»(٥٥).

ولذلــك اهتــم الأدباء والشــعراء بــأدب الأوبئة والجوائح، واعتنوا بموضوعات المحن والابتلاءات؛ فتيــسَّرَ لنــا بذلــك التعــرّف إلى مــا أصــاب الأمم والمماليــك والأمصار من الكوارث والأدواء، وإلى ما خلَّفته فيهم من الضحايا والخســائر، وما واجهوا به تغوُّلَ تلك الأوبئــة والأمراض والجوائح التي لا ترحم.

وقد تحقق لنا في هذا البحثُ تبَيُّن حدوث الابتلاء على مرّ الدهور، وتعاقُــب الأزمان والعصور، وأنّ

---

(٥٤) سنعيش (ديوان شعر): ٦١،٦٢،٦٣.

(٥٥) طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٤.

هذه الابتلاءات لم تمنع النفوسَ من إيقاظ مَلكاتِ الإبداع في دواخلها، فتحصّل لنا زادٌ عظيم من الفنون التي نقلت إلينا أحوال الناس في التَّعاطي مع الأوباء والأدواء، والأدب منها خاصة، لنكون أمام مُكوّنٍ تراثي زاخر وثَرّ، نتجَوّزُ في وضعه ضمن ما يمكن تسميته «أدبَ المحن».

ومن كلّ ما سبق يتحقَّقُ لنا أمرٌ هام، وهو أنَّ الوقايةَ أفضلُ من العلاج، واستباقَ العلّة بتجنُّب مسبّباتِها أيسرُ وأهونُ وأجدى من مسارٍ طويلٍ من التطبيب، يُوهِنُ الأجساد ويتعبها، ويُفلِسُ الجيوبَ ويُفرغها، ويُنْهِكُ الشعوبَ ويضعفها.

وتيمُّنا بالعافية والسلامة التي هي أعزُّ ما يُطْلب، وبالصحة التامة التي هي أغلى ما يُتَمَنَّى؛ نختم مع الضحاك بن سُليمان، وقد أنشد حكمةً ومَثَلًا سائرًا(٥٦):

ما أنعم الله على عبدهِ
بنعمة أوفى من العافيهْ
وكلُّ من عُوفِيَ في جسمه
فإنه في عيشة راضيه

المصادرُ والمراجعُ

- الأدب المفرد: الإمام البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٣، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- الإشعار بحميد الأشعار: علي أفندي الدرويش، نسخة خطيَّة لديوان متاحة على الأنترنت.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة: تقيّ الدين أحمد بن عليّ المقريزي، دراسة وتحقيق د. كرم حلمي فرحات. دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.
- بلاد شنقيط (المنارة والرباط): الخليل النحوي. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس. ١٩٨٧م.
- خلاصة تاريخ الأندلس: شكيب أرسلان (أمير البيان). دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع، مصر. طبعة: ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٨م.
- ديوان ابن سناء الملك: تحقيق محمد إبراهيم نصر ود. حسين محمد نصار. تقديم د. عوض الغباري، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الشركة الدولية للطباعة، مصر. (د.ت).
- ديوان ابن الوردي: (زين الدين أبو حفص عمر بن مظفّر بن عمر الوردي الشافعي المعروف بابن الوردي). تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي. دار الآفاق العربية- القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- ديوان الإمام علي كرم الله وجهه: جمع وترتيب عبد العزيز الكرم. ط/١: ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
- ديوان الرياحي: (الشيخ إبراهيم الرياحي). تحقيق: محمد اليعلاوي وحمّادي الساحلي. دار الغرب الإسلامي. (د.ت).
- ديوان علي الجارم: تقديم: عباس محمود العقاد. دار الشروق، القاهرة، ط ١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- ديوان المرتضى: (الشريف المرتضى). تحقيق

---

(٥٦) المستطرف في كل فن مستظرف. ٣/٣٥١.

رشيد الصفار. مراجعة مصطفى جواد، القاهرة، ١٩٨٥م.
- رحلة المكناسي: (محمد بن عبد الوهاب المكناسي). حققهـا وقدم لها: محمد بوكبوط، دار السـويدي للنـشر والتوزيع، أبـو ظبي. والمؤسسـة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م..
- سـنعيش (ديـوان شـعر): العتيبـة (مانع بن سعيد). أبو ظبي، ط ١، ٢٠٢٢م.
- شرح ديـوان المتنبي: البرقوقـي (عبد الرحمن). دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- شـعر زهير بن أبي سُـلمى: الأعلم الشـنتمري، تحقيق د. فخـر الدين قبـاوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- الطـب والأدب، علائـق التاريخ والفن: الرشـيد (عبد الله سـليم الرشـيد). كتاب المجلـة العربية، العدد: ٢٠٨. الرياض، المملكة العربية السعودية. ١٤٣٥هـ.
- طبقـات فحـول الشـعراء: محمَّـد بـن سـلَّام الجمحي، قرأه وشرحه محمود محمد شـاكر، دار المدني، جدة.
- الظرائـف واللطائـف واليواقيـت في بعـض المواقيـت: الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، جمعها الإمام أبـو نصر المقدسي، تحقيق نـاصر محمدي محمد جاد. مراجعة وتقديم د. حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- عـار الجوع (الغذاء، والعدالـة، والمال في القرن الحـادي والعشريـن): ديفد ريـف. ترجمة أحمد عبد الحميد أحمـد. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٢٢م.
- علي الحصري القيرواني. دراسة وتحقيق محمد المرزوقـي والجيلانـي بـن الحاج يحيـى. تقديم: محمد اليعلاوي. المجمـع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"- قرطاج. ٢٠٠٨م.
- الكشـكول: العاملي (بهاء الدين). تحقيق أحمد الزاوي. دار إحياء الكتب العربية. (د.ت).
- ما رواه الواعون في أخبار الطاعون: السـيوطي (الإمام جلال الديـن). تحقيق الدكتور محمد علي الباز. دار القلم- دمشق.
- مـدن موريتانيـا العتيقة (قصـور ولّاته وودّان وتيشّـت وشـنقيط): د. أحمـد مولـود ولـد أيّده الهلال، تقديـم د. عبد الودود ولد الشـيخ، مركز الدراسـات الصحراويـة بكليـة الآداب في جامعة محمـد الخامس بالرباط. دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠١٤م.
- المُدهـش: جمال الدين بـن علي بن محمد ابن الجوزيّ، دار الجيل، بيروت، د.ت، د. ط.
- المسـتطرف في كل فـن مسـتظرف: محمـد بن منصور الأبشيهي، عُني بتحقيقه إبراهيم صالح. دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.
- مطالعـات في الشـعر المملوكـي والعثماني: د.

بكـري شـيخ أمـين بكـري، دار العلـم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٨٦م.
- المعجـم الحسـاني (جغـرافي، بيئـي، تراثـي): فعـراس (عبد العزيـز، دكتور). تقديـم الدكتور محمد فتوحي. بتعاون مع (جماعة). منشـورات مركـز الدراسـات الصحراويـة بكليـة الآداب في جامعـة محمد الخامس بالربـاط. دار أبي رقراق للطباعة والنشر ، الرباط، ٢٠١٦م.
- مقامـات بديع الزمـان الهمذاني: شرح العلامة الشـيخ محمد عبده، تعليـق د. عبد العزيز نبوي. منشورات الشهاب، الجزائر، ط ١، ٢٠١٤م.

الدَّوريَّات:

- الأمـراض المعديـة عند العـرب والمسـلمين: د. محمود الحاج قاسـم محمد، مجلـة (المورد)، مج ٩- العدد ٤، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- الذاكـرة وتجربـة الألـم في خطـاب الفاجعـة التخييلي (قراءة وصفية فينومينولوجية مقارنة): د. سـمية عـزام، مجلـة (عالـم الفكـر)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت. العدد: ١٨٧، يوليو- سبتمبر، ٢٠٢٢م.
- الظواهر الصحية والطبية في أحاديث الرسـول محمـد(ﷺ): العانـي (مصطفـى شريـف، دكتـور). مجلـة (المـورد)، مـج ٩، العـدد ٤- ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.، بغداد، .